# المحور الأوّل

## دراسات تراثيّة

مجلّة اللّغة العربيّة المجلّد: 21 العدد: 46 السّنة: الثّلاثيّ الرّابع 2019 ص: 13 - 26

# الإعجاز البلاغي والنحوي في القرآن الكريم

# Miracles of the rhetorical and grammatical in the Holy Quran.

أ.عقيلة لعشبي[1]

تاريخ الإرسال:04.09.2018 تاريخ القبول:20- 03- 2019

**الملخّص:** إنّ الحديث عن الإعجاز القرآني هو الحديث عن البيان الربّاني، وهذا البيان مشغلة العقل العربي في كلّ الأزمنة، لأنّ القرآن الكريم وجود لغوي ركّب كلّ ما فيه أحسن تركيب ليبقى خالدا مع الإنسانيّة، فيأتي الجيل من الناس ويمضي وهو باقٍ بإعجازه وحقائقه ينتظر الجيل الذي يخلفه على حدّ تعبير الأستاذ مصطفى صادق الرافعي، والبحث في وجوه إعجازه واجب على علماء الأمّة في كلّ الأزمنة يقول في ذلك الأستاذ محمد رشيد رضا . مؤسس مجلّة المنار بالقاهرة للردّ على المتحاملين على الإسلام وللدفاع عنه وعن إعجازه أمام الحملات التضليليّة . :« إنّ الكلام في وجوه إعجاز القرآن واجبٌ شرعا، وهو من فروض الكفاية، وقد تكلّم فيه المفسّرون والمتكلّمون وبلغاء الأدب المتأنّقون، ووجب على بلغاء الأدب في عصرنا هذا الحديث عن بلاغته وتصوير إعجازه » وذكر من القدامى عبد القاهر الجرجاني في كتابيه (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز) والقاضي البقلاني في كتابه (إعجاز القرآن) وقال إنّ هذه الكتب وفّت بحاجة أزمنتها ولم تعد تفي بحاجة زماننا لذا وجب على بلغاء الأدب في عصرنا الحديث

[1] جامعة مولود معمري- الجزائر، البريد الإلكتروني: Akilalachebi9@gmail.com

عنه، وضرب مثالا عن المعاصرين الذين تحدّثوا عنه بمصطفى صادق الرافعي في كتابه (إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة).

وقد تناولت الكثير من الكتب الحديثة مظاهر أخرى من الإعجاز كإعجازه العلمي والغيبي والتشريعي وغيرها وكلّها عجز البشر عن الإتيان بمثلها، والكثير من العلماء القدامى والمعاصرين أمثال ضياء الدين بن الأثير والأستاذ شوقي ضيف يرون أنّ ترويض اللسان على آياته سرّ من أسرار تعلّم البلاغة وطلاقة اللسان وفيها غنى عن دروس كتب البلاغة لأنّ فيها من الفصاحة والبلاغة ما لا يوجد في كتب أرباب الصناعة البيانيّة.

**الكلمات المفتاحية:** الإعجاز القرآني؛ الإعجاز اللغوي؛ الإعجاز النّحوي الإعجاز البلاغي.

**Abstract:** The talk about the Quranic miracle is the talk of the divine statement, and this statement is the operator of the Arab mind in all times, because the Holy Quran is a linguistic presence installed all the best installation to remain immortal with humanity comes the generation of people and goes on with his miracles and facts waiting for the generation that succeeds on the border Expression of Professor Mustafa Sadiq Rafie. The research on the faces of the miracle is a duty of scholars of the nation in all times, says Professor Mohamed Rashid Rida, founder of Al-Manar magazine in Cairo to respond to those who stand against Islam and to defend him and his miraculous before the campaigns of disinformation: «The speech in the faces of the miracle of the Koran is a duty of law, which is one of the duties of sufficient, and has spoken by speakers and interpreters and exquisite in literature, and the language of literature in our time to talk about his rhetoric and portraying his miracles», said Professor Mohammed Rashid Reda of the

old Abdul Qahir Jirjani in his books (The Book of Miracles) and (Evidence of Miracles) and Judge Al-Baklani in his book (Miracles of the Quran) and said that these books have met the needs of their time and no longer meet the needs of our time. Therefore, the literature literature in our time should talk about it and set an example of the modernists who spoke about it Mustafa Sadiq (The miracle of the Koran and the rhetoric of the Prophet).Many old and modern and contemporary scholars, such as Ziauddin ibn al-Atheer and Shawki Daif, believe that taming the tongue on its verses is a secret of learning the eloquence, fluency of the tongue, and the richness of the tongue. On the lessons of books of rhetoric, because of the eloquence and eloquence of what is not found in the books of graphic industry.

**KEY WORDS:** Quranic miracles; The linguistic miracle; Grammatical miracles; Miracles of the rhetorical.

**المقدّمة:** أنزل الله عزّ وجلّ القرآن الكريم باللسان العربي المبين لعلّة لا يعلمها إلاّ هو، وقد تحدّى به الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثله وإن كانوا من فحول الأدب وأرباب البيان قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾ [الإسراء، 88] ثم قطع الشكّ في استحالة ذلك في قوله: ﴿ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة، 23- 24]، كما تحدّى النبيّ ﷺ العرب قاطبة عشرين سنة على أن يأتوا بسورة من مثله إلاّ أنّهم عجزوا وانقطعوا، وهم أهل الفصاحة والبلاغة، وكان هذا التحدّي من مظاهر إعجازه، وقد تبارى الكثير من الأئمّة البارزين والعلماء إلى تدبّر معانيه وتفسيرها واستخراج كنوزه منذ القرون الأولى للهجرة، فظهرت مؤلّفات كثيرة بحثت في مظاهر إعجازه، وفي صدارة المباحث التي تناولتها في إعجازه لطائفه النّحويّة والبلاغيّة إذ للنّحو إلى جانب البلاغة موضع

شريف في اكتشاف أسراره مصداقا لقوله صلّى الله عليه وسلّم:« أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه ».

**العرض:** شهد القرنان الثالث والرابع الهجريان ظهور الكثير من المؤلّفات التفسيريّة التي تناولت الإعجاز القرآني في مظاهره المتنوّعة، فكان من أوائلها كتاب (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ضمّ ثلاث رسائل: الأولى لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني ت386هـ في رسالته (النكت في إعجاز القرآن)، والثانية لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي ت388هـ في رسالته (بيان إعجاز القرآن)، والثالثة لعبد القاهر الجرجاني ت471هـ في رسالته (الرسالة الشافيّة) وكذلك كتاب (دلائل الإعجاز) للجرجاني، وكتاب (إعجاز القرآن) لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني ت403هـ وغيرها.

وكان الرماني في رسالته (النكت في إعجاز القرآن) يرى أنّ إعجاز القرآن يظهر في سبع جهات تحدّى بها العالم قاطبة وهي: ترك المعارضة مع توفّر الدواعي وشدّة الحاجة، والتحدّي للكافة، والصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبليّة، ونقض العادة، وقياسه بكلّ معجزة، والبلاغة هي إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ، ويقرر أنّ أعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن [1].

ويقرر الخطابي في رسالته (بيان إعجاز القرآن) أنّ أهمّ علّة في إعجاز القرآن أنّه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف متضمّنا أصحّ المعاني من توحيد وتحليل وتحريم، والإتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر، ويرى أنّ بلاغة القرآن بلاغة فائقة في وصفها سائر البلاغات، ويعلل بلاغته بوضع كلّ نوع من الألفاظ موضعه الأخصّ، لأنّ في الكلام ألفاظ متقاربة في المعنى يحسب أكثر الناس أنّها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب وذلك نحو قولك: جلس وقعد، وعرف وعلم، والنعت والصفة، ومن

وعن، وغيرها من الأسماء والأفعال والحروف التي لها دلالات خاصة ودقيقة. وهو ما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني في رسالته (الرسالة الشافيّة) حين قال: « اعلم أنّ لكلّ نوع من المعنى نوعا من اللفظ هو به أخصّ وأولى، وضروبا من العبارة هو بتأديّته أقوم وهو فيه أحلى وإلى الفهم أقرب...»[2].

كما شهد القرن الثالث وما بعده ظهور الكثير من المؤلّفات التفسيريّة الكبيرة كتفسير أبي جعفر الطبري تـ310هـ المعروف بـ (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، وهو من أشهرها على الإطلاق شرقا وغربا، كان قدره ثلاثين ألف ورقة ثمّ اختصره الطبري إلى ثلاثة آلاف ورقة، وفيه من التفاسير التي تصوّر الإعجاز النّحوي والبلاغي الشيء الكثير، ويرى أنّ تدبّر معاني القرآن لا يحصل إلاّ لمن كان بمعاني بيانه عالما ويقول في ذلك: « إنّي أعجب ممّن قرأ القرآن ولم يعلم تأويله كيف يلتذ بقراءته» [3].

ويرى أبو القاسم محمود الزمخشري ت538هـ في تفسيره (الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) أنّ أدوات علم النّحو تكشف عن الكثير من التأويلات الجديدة للآيات القرآنيّة وأنّها سرّ من أسرار كشف إعجازه وهو ما ذهب إليه ضياء الدين بن الأثير تـ637هـ في كتابه (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) حين استعان بمعطيات علم النّحو الكثير من صيغ الأسماء ومباني الأفعال والحروف لتذوّق لطائف القرآن الكريم التي قال عنها إنّها لا توجد إلاّ في هذا الكلام الشريف. كما تناول ابن خطيب زملكان تـ651هـ في كتابه (المجيد في إعجاز القرآن الكريم) الكثير من المباحث النّحويّة التي تصوّر الإعجاز وحلل الكثير من الآيات القرآنيّة تحليلا فنيّا مستعينا بأدوات علم النّحو المختلفة في فهم الكثير من الحقائق والتأويلات، لأنّ النّحو وسيطة مهمّة في فهم المعاني والدلالات، كما تصوّر أدوات البلاغة من كنايات واستعارات وتشبيهات وتكرار وتوريّة وحسن الابتداءات والافتتاحات وحسن التخلّص وغيرها الكثير من

الدلالات الإعجازيّة في آيات القرآن الكريم التي تسحر العقول، وهي تغني دارس البلاغة عن كتب البلاغة، يقول ابن الأثير عن فضل البلاغة القرآنيّة في تعليم الناشئة: « هذا كلام يبكر العقول ويسحر الألباب، وفيه كفاية لطالب البلاغة فإنّه متى أنعم فيه نظره وتدبّر أثناءه ومطاوي حكمته علم أنّ في ذلك غنى عن تصفّح الكتب المؤلّفة في هذا الفنّ» [4].

وبلاغة القرآن تضرب الرقم القياسي في لطافة التعبير ودقائق المعاني وجعلت الأئمّة العلماء يتحيّرون في أمرها، وهي تفوق في وصفها سائر البلاغات، وكان الخطابي في رسالته (بيان إعجاز القرآن) حددها بأنّها "وضع كلّ نوع من الألفاظ موضعه الأخصّ" إذ من خصائص الأسلوب القرآني الدقّة التامّة في انتقاء الألفاظ وحسن اختيارها ووضعها موضعها المناسب وهو ما يسمّى بإصابة المعنى، وذلك لأنّ في الكلام ألفاظ متقاربة في المعاني يظنّ الناس أنّها متساوية في المعنى وفي إفادة المراد منها وإن كانت تشترك في بعضها، ولكنّها ليست كذلك، وذلك نحو: قعد وجلس، وعرف وعلم، والصفة والنعت، والسنة والعام، فهي ألفاظ لها دلالات خاصة غير متساويّة، فقعد يقال لمن كان واقفا، وجلس يقال لمن كان مضطجعا، وعرف فعل متعدّ إلى مفعول واحد وعلم متعدّ إلى مفعولين فثمّة فرق في استعمالهما والصفة ثابتة والنعت متغيّر، والسنة للشدائد والعام للخير وغيرها، وأمثلة ذلك في كتاب الله عزّ وجلّ لا تعدّ ولا تحصى، كيف لا وهو الكلام المعجز بكلّ أصناف الإعجاز ومن أمثلة بلاغته قال الخطابي في قوله تعالى: ( فأكَلَهُ الذئبُ ) [يوسف 12]، لمَ قال أكله ولم يقل افترسه فهذا المستعمل في فعل السباع إذ يقال: افترسه السبع، فقال متسائلا: أليس هذا هو المختار الفصيح في معناه ؟ وأمّا الأكل فهو عام لا يختص به نوع من الحيوان دون نوع، وفي قوله: ( وانطلقَ الملأُ منهم أنِ امشُوا واصبرُوا على ألهتكم... ) [ص، 6] فقال: هل المشي في هذا الموضع أبلغ الكلام، ولو قيل بدل ذلك أن امضوا وانطلقوا أليس ذلك أبلغ وأحسن، وفي قوله: ( هَلَكَ

عَنِّي سُلْطَانِيَهُ ) [الحاقة، 29] وإنّما يستعمل لفظ الهلاك في الأعيان والأشخاص كقولك: هلك زيد وهلك مال عمرو، وأمّا الأمور التي هي معانٍ وليست بأعيان ولا أشخاص فلا يكادون يستعملونه فيها، ولو استعمل لكان مستقبحا غير مستحسن، وقوله سبحانه:﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات، 8]، وأنت لا تسمع فصيحا يقول: أنا لحبّ زيد شديدٌ، وإنّما وجه الكلام وصحّته أن يقال: أنا شديد الحبّ لزيد، وقوله سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ [المؤمنون، 4]، فلا يقول أحد من الناس: فعل زيد الزكاة، وإنّما يقال: زكّى الرجل ماله وأدّى زكاة ماله وقوله سبحانه:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴾ [مريم، 96]، من الذي يقول: جعلت لفلان ودّا وحبّا بمعنى أحببته ؟ وإنّما يقال: وددته وأحببته، وقوله: ﴿ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۢ بِظُلۡمٖ ﴾ [الحجّ، 25]، وقوله:﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ ﴾ [الأحقاف، 33]، فأدخل الباء في قوله: بإلحاد وبقادر، وهي لا موضع لها هنا...

وقال في الجواب عن هذه الآيات: إنّ ألفاظ القرآن وبلاغتها على النعت الذي وصفناه صحيح لا ينكره إلاّ جاهل أو معاندٌ، وذلك لأنّه وضع اللفظ لفظه الأخصّ المراد به بيان الخطاب، فقوله تعالى: ( أكله الذئب ) فإنّ الافتراس معناه القتل فحسب، أي دقّ العنق، وادّعى إخوة يوسف على الذئب أنّه أكله أكلا وأتى على جميع أجزائه وأعضائه، فلم يترك مفصلا ولا عظما وذلك لأنّهم خافوا مطالبة أبيهم إيّاهم بأثر باق منه يشهد بصحّة ما ذكروه فادّعوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة، والافتراس لا يعطي تمام هذا المعنى فلم يصلح على هذا المعنى إلاّ الأكل. أمّا قوله: ( أن امشوا واصبروا على ألهتكم ) لو قيل بدله: امضوا وانطلقوا كان أبلغ، إلاّ أنّ الأمر ليس كذلك لأنّ المشي في هذا المحل أولى وأشبه بالمعنى، وذلك لأنّه قصد به الاستمرار على العادة الجاريّة ولزوم السجيّة

المعهودة في غير انزعاج منهم ولا انتقال عن الأمر الأول، فالمعنى: امشوا على هيئتكم وإلى مهوى أموركم. وأمّا قوله: ( هلك عنّي سلطانيه ) فإنّ هلك أفصح وأبلغ وهو استعارة كنحو قوله: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴾ [يس، 37]، فالسلخ استعارة وهو أبلغ من قوله: نخرج منه، وكقوله: ( فاصدع بما تؤمر ) هو أبلغ من قوله: فاعمل بما تؤمر. وأمّا قوله: ( وإنّه لحبّ الخير لشديدٌ ) أنّ الشديد معناه هاهنا البخيل، ويقال رجل شديد ومتشدد أي بخيل، أي لحبّ الخير لبخيل، والخير هنا هو المال. وقوله: ( الذين هم للزكاة فاعلون ) فإنّ المستعمل في الزكاة ألفاظ معروفة كالأداء والإيتاء ونحوها ولا يقال: فعل فلان الزكاة، قلت: فالجواب أنّ هذه العبارات لا تستوي في مراد هذه الآية، فمعنى الكلام ومراده المبالغة في أدائها والمواظبة عليها حتى يكون ذلك صفة لازمة لهم فيصير أداء الزكاة فعلا لهم مضافا إليهم يعرفون به فهم له فاعلون، وهذا المعنى لا يستفاد على الكمال إلاّ بهذه العبارة فهي إذن أولى العبارات وأبلغها في هذا المعنى. وقوله: ( سيجعل لهم الرّحمانُ وُدًّا ) إنّما المعنى أنّ الله سيجعل لهم في قلوب المؤمنين أي يخلق لهم في صدورهم مودّة ويغرس لهم محبّة كقوله عزّ وجلّ: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ﴾[النحل، 72]، أي خلق. وقوله: ( ومن يُردْ فيه بإلحادٍ بظلمٍ ) الباء زائدة وهي لغة فصيحة كقول الشاعر: نضرب بالسيف ونرجو بالفرج.

وللتكرار فائدة عظيمة في الكلام وهو ضرب من البلاغة إذا كان في الموضع الذي يقتضيه وتدعو إليه الحاجة إذ باستعماله تعظم العناية بالأمور المهمّة ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان، يقول عزّ وجلّ عن فائدته: ﴿ وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[القصص، 51]، ويقول ابن الأثير عن فائدته في القرآن الكريم: « اعلم أنّه ليس في القرآن مكرر لا فائدة في تكريره، فإن رأيت شيئا منه تكرر من حيث الظاهر فأنعم نظرك فيه فانظر إلى سوابقه ولواحقه لتنكشف

لك الفائدة منه». والتكرار نوعان تكرير لفظ وتكرير معنى، ومن تكرير اللفظ قوله تعالى: ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المدثر، 19- 20]، ففائدته هنا هو التعجّب ومن تكرير المعنى قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ [سبأ، 5]، فالرجز هو العذاب وفائدة تكراره المبالغة أي عذاب مضاعف من عذابٍ. ومن السور التي تصوّر التكرار بوضوح سورة الرحمان في قوله تعالى: ( فبأيّ آلاءِ ربِّكُمَا تُكذّبانِ ) وفائدته تجديد ذكر النعم التي أنعمها الله عزّ وجلّ على الإنس والجنّ في هذه السورة ثمّ اقتضاء الشكر عليها، قال الخطابي إذا كان التكرار في هذه السورة يعني وجوب تجديد الشكر على نعمه، فما معنى قوله تعالى: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ [الرحمان، 35] ثمّ أتبعه بقوله: ( فبأيّ آلاءِ ربِّكُمَا تُكذّبانِ ) أيُّ موضع نعمة هنا ؟ قلت: إنّما تحقق معرفة الشيء بأن يُعتبر بضدّه ليوقف على حدّه، وهذا ما عبّر عنه بعض حكماء العرب:

والحادثات وإن أصابك بُؤسها فهو الذي أنباك كيف نعيمها.

أمّا عن التشبيه الذي هو العقد بين شيئين على أنّ أحدهما يسدّ مسدّ الأخر في حسّ أو عقل وهو على وجهين: تشبيه بلاغة وتشبيه حقيقة، فمن تشبيه الحقيقة قولك: هذا الدينار كهذا الدينار فخذ أيّهما شئت.

أمّا تشبيه البلاغة فهو تشبيه البيان وهو من أعلى مراتب الكلام ومنه في قوله تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ [الحديد، 20]، هذا تشبيه بيان قال عنه الرماني قد أخرج ما لم يجرِ به عادة إلى ما قد جرت به، وقد اجتمعا في شدّة الإعجاب ثمّ في التغيير بالانقلاب، وفي ذلك الاحتقار للدنيا والتحذير من الاغترار بها والسكون إليها.

وقال في قوله تعالى: ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الحديد 21] فهذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم، وفي ذلك البيان العجيب بما قد تقرر في النفس من الأمور والتشويق إلى الجنّة بحسن الصفة مع ما لها من السعّة وقد اجتمعا في العظم.

والاستعارة هي تعليق العبارة على غير ما وُضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة، يقول الخطابي في قوله: ﴿ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء، 12]، فمبصرة ها هنا استعارة وحقيقتها مضيئة وهي أبلغ من مضيئة لأنّه أدلّ على موقع النعمة لأنّه يكشف عن وجه المنفعة. وفي قوله: ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ [مريم، 4] أصل الاشتعال للنار وهو في هذا الموضع أبلغ وحقيقته كثرة شيب الرأس إلاّ أنّ الكثرة لمّا كانت تتزايد تزايدا سريعا صارت في الانتشار والإسراع كاشتعال النار... وله موقع في البلاغة عجيبٌ، وذلك أنّه انتشر في الرأس انتشارا لا يتلافى كاشتعال النار. وفي قوله: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل، 112]، وهذه استعارة وحقيقتها أجاعها الله وأخافها وهي استعارة بليغة لدلالتها على استمرار ذلك كاستمرار اللباس على الجلد.

وفي قوله: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ [الكهف، 11]، قال الرماني لمّا كانت الأذن طريقا إلى الانتباه والإحساس منع الفتية الإحساس بأذانهم من غير صمم، ودلّ على عدم الإحساس بالضرب على الأذان دون الضرب على الأبصار وذلك بتغميض الأجفان من غير عمي، وهذه استعارة أبلغ من قوله منعناهم.

ومن حسن اختيار القرآن للفظ المناسب الذي يصيب المعنى المراد قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ [النمل 33]، فأنت لا تجد

في وصفهم أنفسهم أبرع ممّا وصفهم به القرآن في قوله تعالى (نحن أولوا)، ففي هذا القول إيحاء على القدرة على إحداث الخوارق والاستعداد لكلّ هول، ويفيد كذلك الفخر والاعتزاز والنفوذ الواسع وشدّة البأس، وهي أبلغ في الدلالة وأعظم أثرا في النفس، ولو قال: (نحن أقوياء) لما كان لها ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ [غافر، 5]، فليست هناك كلمة أبلغ في الدلالة من كلمة (ليأخذوه) لما لها من وقع الجزالة والدقّة، ولو وضع موضعها: ليقتلوه أو ليرجفوه أو لينفذوه أو ليطردوه أو ليهلكوه ونحو ذلك لما وقعت في النفس، وما كان ذلك بديعا ولا بارعا، ولأنّهم أرادوا أن يتمكّنوا منه وإصابة ما أردوا فيه من تعذيبٍ وقتلٍ وغير ذلك.

ومن أسرار إعجازه أيضا ذكر كلمة أو اقتباس من لغة قديمة قد تكون مندثرة ليصوّر سبحانه وتعالى للقارئ اللغات التي كانت تتحدث بها شخصيات القصص القرآني وكذلك جوانب من عاداتهم وتقاليدهم، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى في سورة يوسف على لسان امرأة العزيز: ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ [يوسف، 23]، فكلمة هيت ليست عربيّة بل هي مستوحاة من البيئة الفرعونيّة القديمة أي القبطيّة ومعناها بالسريانيّة (أنا ملكٌ لك)، وفي قوله تعالى: ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ﴾ [يوسف، 25]، فسيدها كلمة ليست في كلام العرب، ومعناها زوجها بلسان القبط، لأنّ القبط يسمّون الزوج سيّدا. وقال تعالى على لسان موسى: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء 22] فعبّدت بني إسرائيل بمعنى قتلت بلغة القبط.

وفي قوله تعالى: ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ ﴾ [سبأ، 10]، فكلمة أوبي ليست عربيّة وإنّما هي من لسان الحبشة ومعناها التسبيح أي جعلها تسبّح، وهي من معجزات سيّدنا

داود عليه السلام. وفي قوله في قصة سليمان عليه السلام: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ﴾ [سبأ 14]، فالمنسأة هي العصا وهي بلغة الحبشة.

وفي قصة شعيب قوله تعالى: ﴿ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾ [الشعراء، 182] فالقسطاس كلمة ليست عربيّة وإنّما هي من لغة الروم، ومعناها الميزان أو العدل.

ومن إعجازه النّحوي استعمال أساليب نحويّة خاصة للدلالة عن المعنى المراد كقوله تعالى: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [إبراهيم، 10]، وقول الرسل: ﴿ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ ﴾ [إبراهيم، 11]، قال ابن خطيب زملكان لمَ قال بإن العاملة ليس ولم يقل على نحو قوله: ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [فصلت، 6]، قلت: لمّا جعلوا الرسل بإدعائهم الرسالة كمن أخرج نفسه من البشريّة أخرج اللفظ ذلك المخرج، وجواب الرسل ( إنْ نحن إلاّ بشرٌ مثلكم ) إعادة لعين مقالهم كما جرت عادة من ادّعى عليه الخلاف فيما لا يخالف فيه. ومن الآيات التي تصوّر فيها أدوات النّحو معاني غير المعاني المعروفة فيها قوله تعالى: ﴿ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ﴾ [القصص، 18- 19]، إذ قال النّحاة في إعراب "أنْ" بعد لمّا زائدة واعتبروها في هذا الموضع زائدة لا محلّ لها من الإعراب وقد أعاب عليهم ابن الأثير هذا الكلام وقال هذا قدح في كلام الله تعالى إذ كيف يكون في كلامه زيادة لا حاجة إليها وهو الكلام المعجز ؟ وقال إنّ النّحاة لا علم لهم بمواقع الفصاحة والبلاغة ولا عندهم معرفة بأسرارها، لأنّه إذا وردت "لمّا" وورد الفعل بعدها بإسقاط "أنْ" دلّ ذلك على الفور، وإذا لم تسقط لم يدل ذلك على الفور وإنّما كان فيه تراخٍ وإبطاءٌ، وورودها بعد "لمّا" دليل على أنّ موسى . عليه السلام . لم تكن مسارعته إلى قتل الثاني كما كانت مسارعته إلى قتل الأول، بل

كان عنه إبطاء في بسط يدّه إليه لذا عبّر القرآن الكريم عن ذلك في قوله: ( فلمّا أن أراد أن يبطش ) وذلك نحو قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ ﴾ [يوسف، 96]، أي لمّا كان منذ إلقاء يوسف في الجبّ ومجيء البشير إلى أبيه ليبشره مدة طويلة أوتي بأنْ. وتصوّر "الـ التعريف" دلالة لطيفة في قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾[مريم، 33]، قال ابن خطيب زملكان لمَ عرّفَ السلام في هذه الآية، ونكّره في قوله عن يحي .عليه السلام . : ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم، 15]، وقوله تعالى:﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات، 79]، قلت: لأنّ سلام يحي سلامٌ من الله عليه وسلامٌ ما منه كافٍ بخلاف سلام عيسى فإنّه طالب لنفسه لمطلوب في أعلى المراتب، وفيه إشعار بذكر الله لأنّ السلام اسم من أسمائه الحسنى، والذاكر لاسمه السلام يتعرّض لمّا اشتقّ منه من المعاني، ولأنّ النكرة لا يحسن منه لأنّها في تقدير: سلامٌ منّي عليّ.

**الخاتمة**: إنّ القرآن الكريم بيان ربّاني خالدٌ في أصواته وألفاظه وعباراته ومعجزٌ إعجازا أبديّا، فبيانه يعجز عن وصفها أيّ بليغ، والإتيان بمثله ضربٌ من المحال مهما بلغ البلغاء أعلى مراتب الكلام، وحفظ النّحاة كلّ حدود النّحو، فهو الكلام الربّاني الذي لا يجارى معه، والموسيقى التي تطرب لها النفوس وتستأنس بها، وإنّ الكلام فيه موصول لن نوفّيه حقّه مهما كان...

**قائمة المصادر والمراجع:**

1 . أبـو جعفـر الطـبري، تفسـير الطـبري، تحقيـق: بشـار عـواد معـروف وعصـام فـارس الحرستاني، مؤسسة الرسالة ط 1، بيروت، 1994.

2 . الجرجاني، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، ط 3، القاهرة، 1976.

3 . ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تقديم: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، د ط، مصر، دت.

4 . الرماني، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام دار المعارف، ط 3، القاهرة، 1976.

**الهوامش**

[1] . ينظر: (الرماني، 1976).

[2] . (الجرجاني، 1976، ص 117).

[3] . (أبو جعفر الطبري، 1994، ج1، ص 8).

[4] . (ضياء الدين بن الأثير، دت، ج3، ص 129).